التصوير على السلاح والنقود والشارات والبنود

ذكر ابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة» أنَّ بعض الملوك كانوا يصوّرون صورة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام على سيوفهم كأنّهم كانوا يتفاءلون به النصر والظفر، فكانت صورته على سيف عضد الدولة وسيف أبيه ركن الدولة، وعلى سيف ألب أرسلان وسيف ابنه ملك شاه[١٣٩].

وكان لمالك بن زهير سيف يسمى بالنون وبذى النون، ولكنَّه لم يسمَّ بذلك لتصوير نون عليه أي حوت، بل لأنه كان مصنوعاً على مثال سمكة، وفيه يقول الحارث ابن زهير:

سيخبر قومه حنش بن عمرو بما لاقاهم وابنا بلال
ويخبرهم مكان النون منّي وما أُعطيته عَرَق الخلال

عرق الخلال ما يعطى للمودَّة، أي لم أُعط هذا السيف مكافأة ومودَّة ولكنّي قتلت صاحبه وأخذته منه، وكان حَمَل بن بدر قتل مالك بن زهير، وأخذ منه سيفه هذا. فقتله الحارث واسترده منه[١٤٠].

وفي «الكامل» لابن الأثير في حوادث سنة اثنتين وثلاثين للهجرة أن عبدالرحمن ابن ربيعة كان له سيف يسمى بالنون، ولذلك قيل له ذو النون، والظاهر أنَّه كان مصنوعاً على مثال سمكة أيضاً كسيف مالك بن زهير فسمي بذلك. وفي «الكامل» أيضاً في ذكر سلاح النبي عليه الصلاة والسلام أنه كان له ترس فيه تمثال رأس كبش فكرهه لذلك[١٤١].

وفي «كتاب الهدايا والتحف» للخالديين: أهدى بعض إخواننا إلى صديق سكّيناً عليها طائر مذهب، وكتب معها أبياتاً منها:

أوقد الصقل ماء إفرندها الجا ری فجاءت كالنار ذات اشتعال
جوّ نور لم تخله بدعة الصنـ ـعة من طائر بديع المثال

عام فى لؤلؤ ولكنه قد قام فيـــــه مذهّب السربال

أما النقود فقد قال الهمدانىّ فى «الإكليل» عن نقود اليمن القديمة، «وبالجوف سوى براقش ومعين والبيضاء والسوداء مأثرتان فيهما آثار عجيبة، وقصور خربة بين الجوف ومأرب يعثر الناس فيها على الذهب القبورىّ، ودنانيرهم ودراهمهم عليها صور»(١٤٢).

وفى «كتاب الوزراء والكتاب» للجهشيارى، نقلا عن أخبار الخلفاء للحارث ابن أبى أسامة أنه وجد لجعفر بن يحيى بعد قتله بركة فى داره التى فى سويقة جعفر، فيها أربعة آلاف دينار، وزن كل دينار مائة دينار ودينار، وعلى كل دينار من أحد جانبيه:

وأصفر من ضرب دار الملوكِ يلوح على وجهـــه جعفر

ومن الجانب الآخر:

يزيد على مائة واحـــداً إذا ناله معســـر ييسر(١٤٣)

انتهى. ولا ندرى إن كان المراد صورته أم اسمه.

وذكر الثعالبى أن سيف الدولة كان أمر بضرب دنانير للصِلات فى كل دينار منها عشرة مثاقيل، وعليه اسمه وصورته، فأمر يوماً لأبى الفرج الببّغاء بعشرة دنانير منها فقال ارتجالاً:

نحن بجود الأمـير فى حَرَم نركع بين السعود والنعم
أبدع من هذه الدنانير لم يجـ ـر قديمـا فى خاطر الكرم
فقـد غدت باسمه وصورته فى دهرنا عودة من العـدم(١٤٤)

ولما قوى أمر بجكم* (١)، واستولى على بغداد فى خلافة الراضى، وتولى إمرة الأمراء،

---

(١) كان بجكم من غلمان أبى علىّ العارض، ثم اتصل بابن رائق أمير الأمراء، وتلقب بالرائقى نسبة إليه، ثم فارقه وانتهى أمره بأن تغلب على بغداد وتولى إمرة الأمراء، وكان ابن رائق، إلى أن قتله أحد الأكراد سنة ٣٢٩، فعاد ابن رائق واستولى على بغداد. وهو بالباء الموحدة والجيم والكاف وضبط بالقلم فى (قاموس الأعلام) بضم أوله وثالثه، ويظهر لنا أنه علم منقول من اسم الذئب، فانه بالفارسية بجكم، ولكنه بفتح الأول وكسره وسكون الجيم الأعجمية وفتح الكاف، وقد يصحف فى بعض كتب التاريخ بجكم بالمثناة التحتية والحاء المهملة، وورد باسم (ياقم) فى دائرة معارف القرن العشرين (١: ٥٧٢)، والظاهر أنه عرّب عن الإفرنجية بلفظ (باقم) بالموحدة، ثم تصحف فى الطبع بالمثناة التحتية، وكلاهما غير صحيح.

ضرب الدنانير والدراهم باسمه وصوّر عليها صورته . ذكر المسعودى أن أبا الحسن العروضى دخل على الراضى فوجده خالياً بنفسه قد اعتراه هم ، و بيده دينار ودرهم عليهما صورة بحكم شاكى السلاح ، ومكتوب حوله :

إنّما العزّ فاعلمِ للأمير المعظّمِ سيد الناس بحكمِ

ومن الجانب الآخر صورته وهو جالس فى مجلسه كالمفكّر المطرق . قال : « فقال الراضى أما ترى ما صنع هذا الإنسان ، وما تسمو إليه همته ، وما تحدثه به نفسه ، فلم أجبه بشىء ، وأخذت به فى أخبار من مضى من ملوك الفرس وغيرهم ، وما كانوا يلقون من أتباعهم وصبرهم عليهم وحسن سياستهم لذلك حتى تصلح أمورهم وتستقيم أحوالهم ، فسلا عما عرض لنفسه »[١٤٥] .

وروى لنا التاريخ عن الظاهر بيبرس أنه جعل رنكه * أى شارته وشعاره صورة أسد ، وأنه نقش هذه الصورة على نقوده وآثاره[١٤٦] ، وقد وقفت فى مجموع خطوط عندى على بيتين ، للبدر يوسف بن لؤلؤ الذهبى ، وقد جهزت إليه دراهم عليها صور أسود وهما :

رددت الحوادث عنى وقد دهتنى كتائبها والجنود
وأنجدتنى بالجياد التى بعثت بها وعليها الأسود

وأنشد البلوىّ فى رحلته المسماة «بتاج المفرق فى تحلية علماء المشرق»[١٤٧] لبعضهم :

لحا الله مصر وسكّانها وفتّت أكبادهم بالحَسَدْ
متى يرتجى مفلس عندهم غِنًى وعلى كلّ فَلْس أسد

وفى كتاب «خزائن الدرر†» أن الملك الظاهر لمّا رسم بنقش صور السباع على الدراهم

(*) الرنك بفتح فسكون وبالكاف المعقودة كالجيم المصريّة لفظ فارسى معرب أصل معناه اللون .

(†) لم نطلع على هذا الكتاب ، وإنما نقلنا هذه العبارة والبيتين عن صحيفة « دار السلام » التى كانت تصدر فى بغداد ، وقد جاء فيها نقلا عن هذا الكتاب أن الظاهر المذكور ابن أيوب ، وفيه نظر لأن من ملك مصر من بنى أيوب ليس فيهم من تلقب بالظاهر ؛ فالمرجح أن المراد الظاهر بيبرس ، فحرفه ناسخ الكتاب ، ولم نجد البيتين فى ديوان التلعفرى المطبوع .

والفلوس ، قال التلّعفرىّ فى ذلك :

وقالوا بمصر تنال الغنى ... وليس على قولهم مستند
وكيف ينال الفقير الغنى ... وصار على كل فَلْس أسد

وكان اتخاذ الرنوك المصوَّرة شائعاً بمصر فى الدولتين التركية* والجركسية ، فكان لكل سلطان رنك يتخيره إما صورة أسد أو نسر أو زهرات من الزنبق أو غير ذلك ؛ وللأمراء رنوك تدل على مناصبهم كالسيف لصاحب خزانة السلاح ، والكأس للساقى (١٤٨) .

وحكى ابن إياس عن الأمير يشبك الدوادار أنه لما خرج لقتال شاه سوار مدة قايتباى صور فى رنكه صورة سبع (١٤٩) .

وفى دار الآثار العربية بقايا من هذه الشارات منقوشة على الأحجار ، منها حجران على كليهما صورة أسدين ، ولوحان من الرخام على كليهما نسر ناشر جناحيه ، ولوح آخر عليه أربع سمكات ، وقطعة خزف عليها سيفان فوقهما هلال ، وغير ذلك من صورة كأس أو عصا أو زهرات من الزنبق أو حيوان لا وجود له تخيله المصور (١٥٠) .

ومن الشارات البديعة ما ذكره ابن تغرى بردى فى ترجمة أقوش الأفرم ، من «المنهل الصافى» فقال : « وكان رنكه دائرة بيضاء يشقها مشطب أخضر عليه سيف أحمر يمر فى البياض الفوقانىّ والبياض التحتانى على المشطب الأخضر . وقال الشعراء فيه ؛ فمن ذلك قول نجم الدين هاشم الشافعى :

سيوف سقاها من دماء عداته ... وأقسم عن ورد الردى لا يردها
وأبرزها فى أبيض مثل كفه ... على أخضر مثل المسنّ يحدّها

وكان الرنك فى غاية الظرف حتى إن النساء الخواطئ كن ينقشنه على معاصمهن» .

ثم لا يخفى أن هاتين الدولتين ، وإن كانتا أعجميتين فى سلاطينهما وأمرائهما ، فقد كانتا عربيتين فى الصنائع والصناع واللغة والعادات ، وكل مظهر من مظاهر المدنية (١٥١) . يشهد بذلك ما امتازت به الأبنية والزخارف وغيرها من الطراز العربى البديع الخاص

(*) هى البحرية التى كانت قبل الجراكسة .

بالعصرين . نعنى أنهما كانتا متأثرتين بالبيئة العربية الإسلامية كسائر الدول الأعجمية التى حكمت فى الإسلام قبلهما ، فلم تؤثر أعجمية الحاكمين فى مميزات المحكومين ، وهم كانوا بين عرب خلّص ومستعربين ؛ بل شهد التاريخ باستعراب بعض أولئك الملوك كبنى بويه بفارس مع أعجمية أصولهم وموطن دولتهم .

أما الأعلام المصورة فقد ذكر المقريزى فى «خططه»[١٥٢] والقلقشندى فى «صبح الأعشى»[١٥٣] أن الفاطميين كان لهم علمان دون لواءى الحمد وهما رمحان برءوسهما أهلة من ذهب صامت ، وفى كل واحد منهما سبع من ديباج أحمر وأصفر ، وفى فمه طارة مستديرة تدخل فيها الريح* فيفتحان ، فيظهر شكلهما يحملهما فارسان من صبيان الخاص ، فيكونان أمام الرايات فى المواكب .

وفى «صبح الأعشى» أن شعار سلطان اليمن كان وردة حمراء فى أرض بيضاء . قال ابن فضل الله : « ورأيت أنا السنجق اليمنى وقد رفع على عرفات سنة ٧٣٨ هـ ، وهو أبيض ، فيه وردات حمر كثيرة»[١٥٤] .

وفى كتاب فى التراجم عندنا† أبيات لابن حمديس من قصيدة فى المديح ذكر بها أعلاما مصورة ، كانت فى جيش ممدوحه وهى مع زيادات عليها من الديوان :

ومطلة فى الخافقين خوافق ... كقلوب أعداء ذوات وجيب
من كل منشور على أفق الوغى ... مسطوره كالمُهْرَق المكتوب
جاءت تتربه العتاق بنقعها ... والريح تنفضه من التتريب
أو كل ثعبان يناط بقسور ... بين البنود كمحنق وغضوب
صور خلعن على الموات فحيلت ... فيها الحياة بسَوْرَة ووثوب
وفغرن أفواهاً رحاباً عُطّلت ... أشداقها من ألسن ونُيوب
من كل شخص يحتسى من ريحه ... روحاً تحرك جسمه بهبوب[١٥٥]

(*) كذا «بالخطط» والذى فى «صبح الأعشى» : يدخل فيها الرمح .

(†) لم نعلم اسمه ولا اسم مؤلفه لنقص بأوله وكتب بعضهم عليه « طبقات العلماء لابن أبى طى يحيى ابن حميدة الحلبى المتوفى سنة ٦٣٠ » .